الفصل الثالث

تأثير المدرسة

تفشل المدارس فى تعليم أطفالها التطابق الناجح والمحافظة عليه من خلال الطرق الضرورية للمسئولية الاجتماعية وتقدير الذات ، فالمسئولية الاجتماعية (الحب فى موقف المدرسة) تناقش باسهاب فى فصول تالية ، ولكنها تذكر هنا باقتضاب : إن دور المدرسة فى تعليم الأطفال وفى تزويدهم بالمعرفة والأدوات الضرورية للنجاح فى مجتمعنا هو الذى يعنينا الآن ؛ ولما كان قد طلب إلى أن أعمل مع الأطفال الذين عجزوا عن التطابق المستفاد من مشكلاتهم السلوكية وفشلهم التربوى ، فقد أدركت لتوى الصعوبة التى تنطوى عليها مساعدتى إياهم .. لقد كان العمل صعبا ، وربما مستحيلا ، لأن الفلسفة الجارية فى التربية التى تؤكد الفشل ، تمنع التلاميذ من إظهار الشعور بتقدير الذات ، ولكى نفهم ما حدث ، يتعين علينا فحص الطفل قبل أن يأتى إلى المدرسة ونتتبعه خلال أعوامه الأولى فى التعليم الرسمى .

يبدأ التعليم منذ الولادة ، ويستمر طوال حياتنا ، وقد طورت المدرسة ، وبخاصة المدرسة الأولية ، لتوحيد مقياس التربية خلال السنوات الباكرة ، ويتعلم الطفل فى السنوات القليلة السابقة على المدرسة شيئاً كثيراً عن الحياة ، فاذا أدخلنا فى اعتبارنا أنه يكون ضعيفاً عند الولادة ، فانه يكون شخصاً قادراً بدرجة معقولة عندما يدخل روضة الأطفال ، إذ يكون قد عرف كثيراً عن العالم ، ويشعر عادة أنه يستطيع أن يكافحه ؛ ومهما كانت بيئته فهو متفائل بمستقبله ، ويأتى إلى المدرسة عدد قليل جداً من الأطفال الفاشلين ،

وليس بين من يأتون إليها من يتميز بالفشل « إنها المدرسة ، والمدرسة وحدها هى التى تسجل على الأطفال بطاقة الفشل » ولدى معظمهم مطابقة ناجحة بصرف النظر عن بيوتهم أو بيئاتهم ، وهم يتوقعون الحصول على الإدراك فى المدرسة ، ويأملون بثقة الأطفال أيضاً فى الحصول على حب واحترام مدرسيهم وزملاء الفصل ، فتحطيم هذا المظهر المتفائل هو أخطر مشكلة بالمدارس الأولية . ومهما كانت خلفية الأطفال ، فانهم يأتون إلى المدرسة بقابلية فائقة لتقبل التعليم [1] ، فاذا فشلوا إذن فى مواصلة التعلم وفق معدلهم السريع السابق ، فانا نعود باللائمة إن شئنا على عائلاتهم أو بيئتهم أو فقرهم ، إلا أننا نكون أكثر حكمة لو عدنا باللائمة على تجربتهم فى المدرسة ، ولو أدخلنا فى حسابنا الاهتمام العظيم بالمدرسة والتربية وعرفنا أن المدرسة بالنسبة لمعظم الأطفال الصغار هى الجانب الوحيد من عالمهم الموجود منذ البداية لأجلهم ، فاننا نرى أن المدرسة لابد أن تكون الجزء الهام إلى أقصى حد فى حياتهم ، وهى كذلك بالفعل ، فاذا فشلت المدرسة فى القيام بالوظيفة التى يجب القيام بها ، فينبغى لنا ألا نبحث عن كباش فداء فى البيئة ، بل يجب أن نصلح المدرسة ، فكثير من المدرسين الذين يعملون مع الأطفال من ذوى « الجذور الاجتماعية المحرومة » يعتقدون أن « السنوات الأولى من المدرسة سنوات حرجة بالنسبة للنجاح أو الفشل » وأنا أوافق كل الموافقة ، لا فيما يتعلق بالأطفال المحرومين وحسب ، بل بالنسبة لجميع الأطفال .

إن الطفل الذى كان يؤدى عمله بصورة مرضية طوال خمس سنوات ، يكون على ثقة من أنه سيستمر كذلك فى المدرسة ، وهذه الثقة فى تجربة كثير منا ممن يعملون فى المدارس ، قد تضعف ، ولكنها تظل فعالة لمدة خمس سنوات أخرى تقريبا ، بصرف النظر عن عدم كفاية تجربته المدرسية ،

---

(١) الدكتور إليوت شابيرو ، رئيس مدرسة أولية بمنطقة هارلم الفقيرة فى نيويورك ستى ، واكتشف صحة هذا القول ، وقد وصف عمله وصفاً مثيراً فى كتابنا : **Our Children Are Dying** ، بقلم نات هنتوف فيكنج سنة ١٩٦٦ .

ومع ذلك فاذا عانى من الفشل المدرسى إبان هذه السنوات الخمس (من سن الخامسة إلى العاشرة) فإنه حين يناهز العاشرة تنهار ثقته ويتحطم حافزه ويأخذ فى التطابق مع الفشل ؛ وإذا ما اقتنع بعدم قدرته على إشباع حاجاته عن طريق استخدام عقله استخداماً منطقياً ، فانه يرجع إلى سلوكه الذى توجهه عواطفه ، السلوك الذى تعلم تجنبه حين كان ناجحا فى الماضى ، ويهجر طريق الحب وتقدير الذات ، ويتحسس عشوائياً الطريق الذى يبدو له وكأنه الوحيد الذى ترك مفتوحا أمامه .. طريق الجنوح والانسحاب . ومع أن النجاح فى المدرسة لا يزال ممكنا إلا أنه يصبح فى كل سنة تالية أكثر صعوبة وأقل احتمالا ، والعدد الذى يعيد الكرة قرب نهاية المدرسة الثانوية والكلية الصغرى Junior college أو High school أو فى المدرسة الليلية ، أو بعد الخدمة فى القوات المسلحة ، ليس بالعدد الكافى الذى يحدث اختلافا كبيرا .

إن مدرسة فنتورا ذات الخمسمائة فتاة ، والتى تضم عدداً من الموظفين السيكولوجيين على درجة عالية من التدريب يعادل تقريباً نظام مدرسة لوس أنجلس برمته ، مع عضو من هيئة التدريس لكل فتاتين ، وتبلغ نفقات الفتاة الواحدة ١٨ دولاراً يوميا . (لايحسب بينها الـ١٠ ملايين من الدولارات التى تنفق على المؤسسة) ، وتستطيع هذه المدرسة إعادة تأهيل ٦٠ إلى ٧٠ فى المائة من فتياتها قضى معظمهن عشر سنوات على الأقل فى فشل متواصل ، وتستطيع قليلات منهن أن تتذكر أية تجربة مدرسية تبعث على الرضا ، ولو كانت هذه الفتيات قد مرت بتجربة مدرسة أولية شبيهة بالتجربة الشاملة التى يحصلن عليها فى فنتورا ، فان كثيرات منهن كن ينجحن ، وكان يمكن تجنب عناء شديد ؛ وكان يمكن أن تسهم كثيرات من هذه الفتيات المتألقات فى خير المجتمع بدلا من أن يكن عالة عليه .

إن السنوات الحرجة تقع بين سن الخامسة والعاشرة ، والفشل الذى

يجب منعه خلال فترة الدراسة يمكن تحاشيه إلى أقصى حد فى هذا الوقت ، وحين يحدث الفشل بالفعل يمكن عادة أن يصحح خلال هذه السنوات الخمس فى حجرات الدراسة بالمدارس الأولية بواسطة العمليات التعليمية والتربوية التى تؤدى إلى إشباع رغبات الطفل الأساسية ، أما السن التى يصعب بعدها إبطال الفشل فيمكن أن تكون قبل أو بعد العاشرة فيما يتعلق بأى طفل ، ويتوقف هذا على الجماعة التى ينتسب إليها ، وقوة أسرته وثروته الوراثية الخاصة ، ومع ذلك ، فبصرف النظر عن هذه التغيرات ، فان ما يدهشنى هو مدى ما يبدو لى من ثبات هذه السن ، ففيما قبل العاشرة ، يمكن للتجربة المدرسية الجيدة أن تساعده على النجاح ، ويقتضى الأمر شيئا أكثر من التجربة المدرسية الجيدة ، ولسوء الحظ ، فانه بعد سن العاشرة بقليل يدفع به إلى مواقف المدرسة الثانوية حيث تكون فرصته فى التجربة التربوية المصححة أضيق كثيراً ، ولذلك فانه بالرغم من إمكان مساعدة الأطفال فى أى مستوى مدرسى ، فان المجهود الأكبر يجب أن يبذل فى المدارس الأولية .

كثيرا ماكتب فى المدة الأخيرة عن الحاجة إلى إعداد الأطفال للمدرسة ، وبخاصة أولئك الذين ينتسبون إلى عائلات فقيرة ، ويقال إن هؤلاء الأطفال تنقصهم القدرة اللفظية ، وأن بيئاتهم البعيدة عن الحياة الفكرية تسبب نماذج ضحلة للتعليم ، وأنهم بحاجة إلى إعداد قبل المدرسة لرفعهم إلى مستوى الأطفال القادمين من بيئات فكرية أكثر تقدماً قبل مرحلة ما قبل المدرسة ؛ والبرنامج الخاص بمثل هذه المرحلة السابقة على المدرسة يعرف باسم Operation Head Start ففى هذا البرنامج يوجد كثير مما سأدافع عنه فيما بعد، فى هذا الكتاب ، يطبق بنجاح . ويدخل أطفال برنامج «Operation Head Start» المدرسة باستعداد عقلى أفضل من الأطفال القادمين من نفس الجيرة ، ومع ذلك ، فمن سوء الحظ ، وكما يتبين من دراسات

البحوث (١) الكثيرة ، أن أطفال هذا البرنامج لم يوفقوا بالمدرسة الأولية النظامية فى بعض الحالات مثل الأطفال الذين لم يتلقوا خبرة تحضيرية جيدة قبل المدرسة ، ولربما تكون المدرسة النظامية التى تحدث فيها حالات كثيرة جداً من الفشل ، وقليلة جداً من النجاح ، فى حالة تناقض مروع مع برنامج Operation Head Start ، وهو برنامج معد لإعطاء كل طفل فترة ناجحة قبل دخول المدرسة ، والمدرسة النظامية بتوجيهها الفاشل الثقيل ، وتركيزها على الذاكرة دون التفكير ، والتعليم بطريقة الاستظهار ، تزعج هؤلاء الأطفال بأشد ما تزعج الأطفال الذين لم يحصلوا على هذا التحضير « الجيد » الذى لم يسبق الالتحاق بالمدرسة ، وأطفال برنامج Operation Head Start أعدوا لمدرسة لم توجد بعد ، على عكس الأطفال الآخرين الذين يتقبلون المدرسة كما هى ، ويعملون مثلهم أو أفضل منهم ، أما الأطفال الأقل إتقانا ، فلهم برنامج شبيه ببرنامج إعداد الجندى للمعركة ، بارساله فى عطلة إلى الريفيرا ، ولست أدافع عن الاستغناء بالتحضير للتعليم فى فترة ما قبل المدرسة ، بل أؤيد بدلا من ذلك تغيير المدارس لكى تستفيد من نتائج برامج ما قبل المدرسة ، الممتازة بدلا من إبطالها .

ما الذى جعل الطفل كثير النجاح وشديد التفاؤل قبل دخوله المدرسة ؟ لقد كان ناجحاً لأنه استخدم عقله فى حل المشكلات المتصلة بحياته ، وكان

---

(١) (دراسة ماكس ولف وآنى ستين :

Study 1 : Siee Months Later — A Comparison of Children Who Had Head Start, Summer 1965, with Their Classmates in Kindergarten.

(دراسة حالة لأربع مدارس أولية عامة من رياض الأطفال فى نيويورك سنى) ولاية نيويورك ، جامعة بيشيبا ، أغسطس سنة ١٩٦٦ . ودراسة مارى ا . كريدر ، ومارى بتشى

An Evoluation of Head Start Preschool Enrichment Programs as They affect the Lnielleetual Ability, the Social Adjutment, and the Achievement Lavel of Five year — Old Children in Lincoln, Nebrasks.

لنكولن ، جامعة انبراسكا ، مارس ١٩٦٧ .

متفائلا لأنه كان ينعم بكثير من المرح ، واكتشف أن الحقيقة وإن تكن قاسية ، فانه يستطيع أن يجد وسائل لمكافحتها .. وسائل كانت فى معظمها ناجحة . ومع ذلك فأهم من هذا كله أنه حتى إذا فشل لم يكن يسمى فاشلا بطريقة أو بأخرى ، بقسوة أو بود ، وكان يبصر بالوسيلة الأفضل ، وحتى إذا لم يستطع والداه أن يوضحوا بدقة لماذا يريدانه أن يتصرف بطرق معينة ، فان معظم ما يطلب منه عمله كان على الأقل قابلا للفهم إلى حد ما ؛ وكان يمنح فرصاً كثيرة ، ولذلك كان ينجح عادة فى آخر المطاف ، ولكنه لم يكن يطالب مطلقا أن ينجح وفقاً لمقاييس زمنية جامدة ، مثل السنوات المدرسية أو نصف السنة الدراسية . وتعلم استخدام عقله فى وظيفته الأساسية : أى التفكير . ولا شك أنه كان يبكى ويصرخ ، وتنتابه نوبات غضب ، ويرتكب أعمالا طائشة ، ويزعج عدة مرات كل يوم ، ولكنه لم يكن يسير فى حياته بطريقة مجافية للعقل (حتى إن بدا كذلك فى نظر والديه) وكان فى خارج بيته أقل انفعالا وأكثر تعقلا ، لأنه سرعان ما تعلم أين تكون نوبات الغضب مفيدة ، وأين لا تعود عليه بفائدة .

ويستكشف الأطفال أنهم يجب أن يستخدموا عقولهم فى المدرسة لإيداع الحقائق فى الذاكرة فى الأغلب ، أكثر مما يستخدمونها فى اهتماماتهم أو أفكارهم أو حل المشكلات ، والحاجة إليه ليست كبيرة جداً فى روضة الأطفال ، ولكنه فى الصف الأول ، ويتزايد استخدامه باستمرار كل عام أثناء الدراسة فى المدرسة الثانوية وحتى فى الدراسة بالكلية حتى معهد التخرج فى بعض الأحيان ، « التفكير أقل قيمة من الاستظهار لتحقيق النجاح (١) » والتغيير المطلوب ، من التفكير إلى الاستظهار يسبب ما يشبه الصدمة للأطفال الذين تعلموا التفكير الناجح ، ويستطيع الكثيرون ، وربما الأغلبية العظمى

---

(١) توجد الاستثناءات من هذه القاعدة فى برامجنا العلمية المدرسية ، حيث لا يزال التفكير هو القاعدة ، والاستظهار هو الاستثناء فى النوع الخاص بحل المسائل على الأقل .

فى الجبرة الغنية الاستمرار بعد هذه الصدمة وتعلم استخدام عقولهم مادامت الذاكرة تسد السبيل، أمام مطلب المدارس لوجود ضغط وتأكيد لعمل ذلك من جانب عائلاتهم ومن بعضهم البعض ، ويكون الأطفال بدون هذا الضغط والتأكيد أكثر رهافة ، وهى حالة شائعة فى المدينة المركزية ، وعندما يطلب إلى هؤلاء الأطفال المرهفين ، الأطفال الذين تقل مؤازرة الأسرة والجماعة لهم ، استظهار الحقائق ، يفشلون ويواصلون الفشل .

إن الاستظهار سيء كل السوء ، وأسوأ منه أن معظم ما يطلب من الأطفال استظهاره لا علاقة له بعالمهم ، وحيثما يكون ذا علاقة بالموضوع ، فان العلاقة التى تدرس ، إما أن تكون ضعيفة أو لا وجود لها ألبتة ؛ ويفزع الأطفال للبون المفاجيء ، وهو فى نظرهم بون مبهم فى السنوات الخمس من حياتهم حين كانوا يستخدمون عقولهم فى المرح وفى حل مشكلاتهم الخاصة ، وهى بالضرورة ذات علاقة بحياتهم ، وبين حياتهم المدرسية فيما بعد .

وعندما يكون كثير مما يطلب إليهم غير متصل جزئياً أو كلياً بالعالم من حولهم كما يرونه هم ، مع تزايد تواتره من الصف الأول حتى معهد التخرج ؛ ومن ثمة ، يكون كل من الإسراف فى الاستظهار وتزايد تخلخل العلاقة سبباً فى التحول إلى الفشل أو الاندفاع نحو الأفعال الجانحة ؛ وسرعان ما يتعلم الأطفال « الناشطون » أن ما هو هام فى المدرسة شيء ، وما هو هام فى الحياة شيء آخر ؛ ويعيشون هذا الوجود الفصامى على وجه مرض ، ومع ذلك فان كثيرين لا يفعلون هذا ، وأنا لا أقول بأن كل شيء فى المدرسة لابد أن يكون اتصاله مباشراً وفورياً بالتلميذ ودنياه خارج المدرسة ، بل أقول مؤكداً ألا يدرس شيء فى المدرسة لا يتعلق بصورة ما بحياة التلميذ « ولكن هذه العلاقة يجب أن تدرس » إذ لا فائدة فى أن يطلب إلى الطفل التفكير فى شيء عن موضوعات غير متعلقة بحياته ، ولا أن يطلب إليه ستظهار حقائق متعلقة بها .

ونحن لا نستطيع افتراض أن الأطفال يعرفون سبب وجودهم بالمدرسة ، وأنهم يفهمون قيمة التربية وتطبيقها عليهم ، ويجب علينا من روضة الأطفال وحتى مدرسة التخرج أن نعلم التلاميذ أو نساعدهم على أن يستكتشفوا بأنفسهم علاقة ما يتعلمونه بحياتهم ، ففشلنا فى عمل هذا يعد السبب الأكبر فى فشل المدرسة .

ولما كان مجتمعنا آخذاً فى التعقيد ، فان فهم الأطفال لهذه العلاقة سيكون أكثر صعوبة ، ونحن نطالبهم بصورة متزايدة بالاعتصام بالثقة ، وأن يتعلموا مادة لا تعنى شيئا فى نظرهم ، وكثيراً ما تعنى القليل فى نظر مدرسيهم . ونظراً لتزايد الأعداد فى مدارسنا ، ومهما كانت ثقتهم فيما مضى ، فسوف تتناقص هذه الثقة ، ومع عدم إحلال شىء محلها يصبح الطريق الوحيد هو الفشل . وليست استخدامات عقل التلميذ فى التفكير والإبداع والبراعة الفنية والمرح وحدها هى التى تهاوت بقسوة ، بل من المحزن على السواء فى هذا الموقف الجماعى القسرى ، أن يكون الجهد المخصص مباشرة لتعليم الأطفال المسئولية الاجتماعية جهداً ضئيلا أو لا وجود له على الإطلاق . إن تعلم مساعدة الشخص لآخر تحل المشكلات المعيشية المشتركة ، ومعرفتنا حين تكون هناك صعوبة تربوية ، أننا لسنا وحدنا فى هذا العالم ، كل هذه أفكار يربطها بالمدرسة قلة من الناس ، فروضة الأطفال فى نظر الكثيرين آخر مكان يقوم فيه تعلم المسئولية الاجتماعية بأى دور فى البرنامج النظامى ، ويتعلم التلاميذ مسئولية اجتماعية أقل وليس أكثر ،فى الوقت الذى تبدو فيه المسئولية الاجتماعية فى فترة انحسار . وحين لا يطلب إلى التلاميذ التفكير فى عالمهم الخاص ، وعن كيفية انتسابهم إلى العالم بأكمله ، وحين يكافأون على تذكر ما يعتقدونه ضرورياً وهاماً ، يبدأون الاعتقاد فى أن الإجابات الصحيحة إما أن تحل جميع المشكلات ، أو أن المشكلات غير قابلة للحل بوجه عام باستخدام التربية الرسمية ، كما يستكشفون مشكلات أعوص حلا . ومجمل القول « إن التربية الغارقة فى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية تنزع فيما يبدو ، إما إلى إنكار وجود هذه المشكلات أمام التلاميذ ، وإما تلمح إلى أنها حلت – وهو تضارب شامل بين الحقائق القوية فى أيامنا المضطربة .

إن ميراثنا البيولوجى هو تفكيرنا المنوع ، وعقلنا المفكر المبدع ، المتفنن العاطفى ، وميراثنا التاريخى نظام تربوى ظهر فى الوجود ويعيش على الزمن بغرض نجاح الفرد ومجتمعه أعظم نجاح فى تعلم المهارات والمعرفة المتعلقة بذلك المجتمع فى مكان رسمى ووفقاً لمجموعة من القيم التقليدية . ويبدو أن التربية تتحرك فى اتجاه مضاد لهدفها التاريخى – التعلم للحياة فى عالمنا – بالإضافة إلى ميراثنا البيولوجى – وهو العقل المفكر . وسأبحث فى الفصلين التاليين استظهار الحقائق ، وانعدام العلاقة بين التربية والحياة ، لأبين كيف تقوض هذه التطبيقات التربوية نظامنا التربوى ، وتزيد من أعداد الفاشلين ، وتعوق معظم أطفالنا .